بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الجمعة التي ألقاها سيدنا الخليفة الخامس – نصره الله تعالى –
في ٢٠٠٦/٠٣/١٠م

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بِسْمِ اللهِ الرحْمنِ الرحِيمِ * الْحَمْدُ للهِ رَب الْعَالَمِينَ * الرحْمـــنِ الرحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدينِ * إِياكَ نَعْبُدُ وإِياكَ نَسْتَعِينُ * اهدِنَا الصرَاطَ المُستَقِيمَ * صِرَاطَ الذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضالِينَ.* آمين.

تصرفات بعض المسلمين تساعد الأغيار للهجوم على الإسلام

يعترض غير المسلمين على الرسول الأكرم ﷺ أنه قد جاء بدينٍ ليس فيه – والعياذ بالله – إلا العنف والقتل والنهب، وأنه لا يوجد فيه أي تصوُّر للحِلم والتسامح والحرية الدينية، ولا تزال تأثيرات هذا التعليم جزءا لا يتجزأ من طبيعة المسلمين.

لقد ذكرتُ من قبل بهذا الصدد مرارًا أن بعض فِرَق المسلمين وطوائفهم لسوء الحظ يساهمون بتصرفاتهم الخاطئة في تكوين هذه الفكرة السيئة وترسيخها. وللأسف الشديد فإن نظرياتهم وتصرفاتهم هذه قد أتاحت فرصةً للعالم غير الإسلامي عامة، وللغرب خاصة لنشر دعاية كاذبة وباطلة، ونشر أفكار مشوهة وممجوجة ضد سيدنا ومولانا محمد المصطفى ﷺ. ونعلم جيدا أن تصرفات هذه الطوائف الإسلامية منافية تماما لتعاليم الإسلام ومبادئه الأخلاقية السامية. إن تعليم الإسلام لَجَميل بحيث لا بد أن يتأثر بحسنه وجماله كل شخص منـــزَّهٍ عن التعصب.

تعليم الإسلام عن حسن المعاملة مع غير المسلمين

لقد ذُكرت هذه التعاليم الإسلامية السامية في مواضع عديدة من القرآن الكريم، وهي تأمر بحسن معاملة غير المسلمين وأداء حقوقهم والعدل معهم وعدم الإكراه في الدين،

وغير ذلك من الأحكام التي لا تخص المسلمين فقط بل غير المسلمين أيضا. لا شك أن الإسلام قد سمح بالحروب أيضا في ظروف معينة، كأن يبدأ العدو بالحرب، أو ينقض العهد أو ينتهك العدل أو يمارس الظلم والاضطهاد إلى أقصى الحدود. غير أنه في هذه الحالة أيضا ليس من حق جماعة أو طائفة أن تشن الحرب بنفسها، بل إن ذلك متروك للحكومة فقط، فهي التي ستقرر ماذا يجب القيام به، أو كيف يمكن صدّ هذا الظلم والاضطهاد. على أية حال لا يجوز لأي من الحركات الجهادية أن تأخذ الأمر في يدها.

أسوة رسول الله ﷺ مقابل ظلم الأعداء

لقد وُجِدتْ في زمن النبي ﷺ ظروف معينة أجبرت المسلمين على خوض حروبٍ دفاعًا عن أنفسهم. ولكن، كما قلتُ، إن الحركات الجهادية في هذه الأيام هيأت بهتافاتها الحربية وتصرفاتها الخاطئة – دون مبرر ودون وجه حق – فرصة لغير المسلمين ليتجاسروا ويشنوا بكل وقاحة هجمات شنيعة على سيد الرسل ﷺ. والحق أن هذا النبي الكريم ﷺ كان رحمة متجسدة ومحسنا عظيمًا للإنسانية وقيّمًا رائعًا على الحقوق الإنسانية. إنه ﷺ لم يدّخر جهدا لتوفير الراحة واليسر لأعدائه حتى في حالة الحرب. وإن كل عمل من أعماله وكل لحظة من حياته الطاهرة تشهد صراحة أنه ﷺ كان رحمةً متجسدة. كان ينبض في صدره الشريف قلبٌ رحيم، وليس بوسع قلب آخر أن يضرب مثلا أعلى منه، أو يؤدي مقتضيات الرحمة بشكل أفضل منه، سواء في السلم أو في الحرب، في البيت أو خارجه، في تعاملاته اليومية أو في معاهداته مع أصحاب الأديان الأخرى. لقد ضرب ﷺ أمثلة رائعة في التسامح الديني وحرية الفكر والمعتقد. عندما دخل النبي ﷺ مكة كفاتح عظيم عفا عن القوم المهزومين ورحمهم، وليس هذا فحسب بل أعطاهم حقا كاملا في حرية الدين، وضرب مثلا أعلى في العمل بالأمر الإلهي القائل: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدينِ﴾(البقرة: ٢٥٧).. أي أن الدين قضية تتعلق بالقلب. إنني أتمنى أن تؤمنوا بالدين الحق وتصلحوا دنياكم وعقباكم، وبالتالي تأخذوا زادًا

لمغفرتكم، ولكن لا إكراه في ذلك. وكما قلت، قد كانت حياة النبي ﷺ كلها زاخرة بالمواقف المجيدة للتسامح وحرية الرأي والعقيدة، وسأقدم إليكم بعضاً منها.

ليس خافيًا على أحد مدى الشدة والقسوة التي عانى ﷺ منها في حياته بمكة لثلاثة عشر عاماً بعد أن ادعى النبوة، إذ تحمل هو وأصحابه – رضوان الله عليهم – الكثير من الآلام والمصائب. لقد طُرِحوا على الرمال الحارقة تحت شمس الظهيرة، ووُضعت على صدورهم أحجار ساخنة، وضُرِبوا بالسياط، وقُتِّلوا تقتيلا، كما قُطّعت النساء إلى نصفين. وتعرض النبي ﷺ نفسه أيضا لفظائع شتى. فقد وُضِعَ على ظهره الشريف سلى الجزور *(أي أحشاء الناقةِ أو الجَملِ المستخرجة بعد الذبح)* وهو ساجد في الصلاة فلم يستطع أن يرفع رأسه من جراء ذلك. وعندما ذهب ﷺ إلى الطائف أخذ الأوغاد يرمونه بالحجارة وسبوه أقبح السباب وأقذره، كان رؤساؤهم يحرضونهم على ذلك. لقد أصيب النبي ﷺ بجروح شديدة حتى سال دمه المبارك من الرأس إلى القدمين وامتلأ حذاؤه منه.

ولا ننسى ما حدث في شِعْب أبي طالب، حيث حُوصِر النبي ﷺ وأقاربه وأتباعه إلى فترة من الزمن، ولم يجدوا شيئا للأكل أو الشرب، حتى تضور الأطفال الصغار جوعًا وعطشًا. وفي أيام تلك المحنة وقع قدم أحد الصحابة على شيء لين في الظلام، فأخذه وأكله ظناً منه بأنه شيءٌ يؤكَل، وأكل ذلك لاضطراره نتيجة شدة الجوع والعطش. فبسبب هذه الظروف المؤلمة اضطر النبي ﷺ للهجرة إلى المدينة المنورة، ولكن الأعداء لم يتوقفوا عن ملاحقته في المدينة أيضا، بل هاجموه وحاولوا تأليب يهود المدينة عليه.

لو نشبت الحرب في ظل هذه الظروف المؤلمة التي ذكرتها باختصار، ووجد المظلوم فيها فرصة لأخذ الثأر من الظالم لسعى حتمًا للنيل منه بظلم مماثل. يقال في المثل الشعبي: كل شيء جائز في الحرب. لكن نبينا ﷺ – على عكس ذلك – قدّم في هذه الظروف أيضًا مثالا رائعًا للرأفة والرحمة.

لم يمر وقت طويل على هجرته ﷺ من مكة، ولا تزال ذكريات الآلام والمصائب حديثة العهد، ورغم أنه ﷺ كان يتألم لمصاب أصحابه أكثر من مصابه هو، لكنه مع كل ذلك ظل متمسكا بتعاليم الإسلام ومبادئه السامية، و لم يتخلَّ عن سموّ أخلاقه التي صارت جزءًا لا يتجزأ من طبيعته وتعاليمه. ولكن انظروا إلى بعض البلاد الغربية اليوم التي تستخدم كل الطرق الشرعية وغير الشرعية عندما تحارب الشعوب. ولكن ما هي أسوة النبي ﷺ إزاء ذلك؟ فقد ورد هذا البيان في التاريخ على النحو التالي:

المكان الذي نزل به النبي ﷺ في معركة بدر لم يكن مناسبا من ناحية السياسة الحربية، فسأله الحباب بن المنذر رضي الله عنه: يا رسول الله! أرأيت هذا المنـــزل، أمَنـــزلاً أنزلَكه الله، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال ﷺ: بل هو الرأي والحرب والمكيدة. فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنـــزل، فانهَضْ بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننـــزله ثم نُغور ما وراءه من القُلُبِ ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرتَ بالرأي. فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه... فلما نزل الناس أقبلَ نفر من قريش حتى وردوا حوض رسول الله ﷺ، فأراد الصحابة منعهم، فقال رسول الله ﷺ: دعوهم. (السيرة النبوية لابن هشام، مشورة الحباب بن المنذر على رسول الله ﷺ)

انتشر الإسلام بالأخلاق لا بالسيف

هذه هي قمّة الأخلاق المحمدية، فإنه ﷺ لم يمنع من الماء – الذي كان تحت سيطرته– جنودَ الأعداء الذين كانوا إلى الأمس القريب يمنعون الطعام والشراب عن أطفال المسلمين، لأنه ﷺ كان يرى أن المنع من الماء يتنافى مع المثل الأخلاقية. إن من أكبر ما يثار ضد الإسلام هو أنه نُشِرَ بحد السيف؛ لو كان الأمر كذلك لمارس المسلمون الإكراه ضد هؤلاء الذين أتوا للماء ولقالوا لهم: لن نعطيكم الماء ما لم تقبلوا شروطنا كذا وكذا.

علمًا أن الكفار قد مارسوا مثل هذا الإكراه في بعض الحروب، ومع ذلك لم يمارسه النبي ﷺ.

وقد يُقال إن السبب في ذلك أن المسلمين وقتها كانوا ضعفاء تعوزهم القوة، فقاموا بإسداء هذا الجميل تحاشيا للحرب. ولكن هذا ليس صحيحا، فكل المسلمين صغارا وكبارا كانوا يعرفون جيدا أن الكفار يتعطشون لدمائهم، وأن الشرر يتطاير من عيونهم بمجرد رؤيتهم المسلمين، لذا لم يخطر ببال أحد منهم أبداً ناهيك عن النبي ﷺ أن الكافرين سيرفقون بهم لو سمحوا لهم بالاستقاء! كلا، بل لم يعاملهم النبي ﷺ بتلك الرأفة والرحمة إلا لكونه رحمة متجسدة، ولحرصه على التمسك بالقيم الإنسانية، فإنه كان من المقدر أن يكون هو مَن سيعلّم الناس سبل هذه القيم السامية.

ثم انظروا إلى موقفه ﷺ تجاه عدو الإسلام الذي سبق الحكم بقتله، ولكنه ﷺ عفا عنه وسمح له أيضا بالعيش بين المسلمين متمسكًا بدينه. وفيما يلي بيان هذا الحادث:

ظل عكرمة ابن أبي جهل، على شاكلة أبيه، يحارب النبي ﷺ، وعندما فتحت مكة أعلن النبي ﷺ العفو العام عن أهلها والأمان لهم، ومع ذلك شن عكرمة الهجوم على كتيبة من المسلمين هاتكًا حرمة الحرم بالقتال فيه، وبسبب جرائمه الحربية أُهدِرَ دمه. ونظرا إلى أنه لم يكن لأحد قوة ليواجه المسلمين في ذلك الوقت، فرّ عكرمة إلى اليمن. فطلبت زوجةُ عكرمة من النبي ﷺ أمانا لزوجها، فرفق به النبي ﷺ وأعطاه الأمان. فلحقت به امرأته وأخبرته، ولكنه لم يصدّق الأمر لما سبق منه من ظلمٍ وقتلٍ وحربٍ ضد المسلمين حتى آخر لحظة، ولكنها أقنعته وأتت به النبي ﷺ ليتأكد بنفسه من الخبر. فلما رآه رسول الله ﷺ أكرمه إكرامًا عجبًا ووثب إليه فرحًا إذ كان من سادة القوم. فلما سأله عكرمة هل عفوت عني فعلاً؟ قال النبي ﷺ: نعم، قد عفوت عنك.

ثم قال عكرمة للنبي ﷺ: هل عفوت عني وأنا على ديني؟ أي أنني لم أسلم بعد، فهل عفوت عني حال كوني مشركا؟ فقال النبي ﷺ: نعم. فانشرح صدره للإسلام وقال له: يا محمد (ﷺ)! أنت الحليم الكريم وواصلُ الرحم. فأسلم عكرمة متأثرا بحسن خلق النبي

ﷺ وإحسانه. (انظر موطّا الإمام مالك: كتاب النكاح، باب نكاح المشرك إذا أسلمت زوجته قبله، والسيرة الحلبية، باب ذكر مغازيه ﷺ، فتح مكة شرّفها الله تعالى)

هذا هو الطريق الذي انتشر به الإسلام، أي بأخلاقٍ حسنة وبحرّية الرأي والمعتقد. إن سهم الخُلق الحسن وحرّية المعتقد قد أصاب شخصًا مثل عكرمة في لمح البصر.

ثم إن النبي ﷺ أجاز للأسرى والعبيد أن يختاروا دينًا بحسب رغبتهم. أما الدعوة إلى الإسلام فهو أمرٌ ربّاني حيث أمَر الله ﷻ المسلمين أن يبشّروا الناس بتعاليمه لأنهم لا يعرفونها. و لم يكن هذا الأمر الرباني إلا رأفة على العباد إذ سيحظون بقرب الله ﷻ بواسطة هذا التعليم.

وقد ورد عن أحد الأسرى عن سعيد بن أبي سعيد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَيلاً قِبَلَ نَجْد، فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِد. فَخَرَجَ إِلَيْه رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: "مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟". فَقَالَ عِنْدِي يَا مُحَمدُ خَيْرٌ، إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ. وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ. فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتى كَانَ بَعْدَ الْغَد، فَقَالَ: "مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟". قَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ، إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ... فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتى كَانَ مِنَ الْغَد فَقَالَ: "مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ"؟. فَقَالَ عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ... فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ". فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِد، فَاغْتَسَلَ ثُم دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَأَشْهَدُ أَن مُحَمدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. يَا مُحَمدُ، وَاللهِ مَا كَانَ عَلَى الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ كُلّهَا إِلَيّ. وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدينِ كُلِه إِلَي. وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَي مِنْ بَلَدِكَ فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلادِ كُلهَا إِلَي. وَإِن خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ، فَمَاذَا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وباركَ له على قبوله الإسلام، وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ، وقال: تقبل الله منك. فَلَما قَدِمَ مَكةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ أَصَبَوْتَ؟ فَقَالَ: لا، وَلَكِنِي أَسْلَمْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلا

وَاللهِ لا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبةُ حِنْطَةٍ حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ. (انظر: البخاري كتاب المغازي باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال)

وفي رواية أن ثمامة بعد إسلامه خرج معتمراً فحاول كفار مكة ضربه لما عرفوا بإسلامه، عندها قال لهم: وَاللهِ لا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبةُ حِنْطَةٍ حَتى يَأْذَنَ فِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ. ثم انصرف إلى بلده ومنَع القمح عن أهل مكة حتى جهدتْ قريش. فذهب أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ يسترحمه لقومه وأن يكتب إلى ثمامة يخلي إليهم حملَ الطعام. فلم يقل له النبي ﷺ بأنكم لن تنالوا القمح ما لم تُسلِموا، بل أرسل ﷺ إلى ثمامة بأن يرفع هذا الحظر فورا لأنه ظلمٌ، فالأطفال والكبار والمرضى والشيوخ يحتاجون إلى الطعام وينبغي أن يقدَّم لهم. (انظر: السيرة النبوية لابن هشام، باب ذكر جملة السرايا والبعوث، أسرُ ثمامة بن أثال الحنفي وإسلامه وخروجه إلى مكة)

فترون أنه لم يُطلب من ثُمَامَة الأسير أن يُسلم، بل عومل معاملةً حسنةً وبأسمى المعايير لثلاثة أيام حتى أُطلِق سراحه. فانظروا إلى موقف ثُمَامَةَ أيضا إذ كان صاحب بصيرة، فبعد أن نال حريته قدّم نفسه مباشرةً ليصبح عبداً للنبي ﷺ معتبرا هذه العبودية خيرا له في الدنيا والآخرة.

كما أن النبي ﷺ في مناسبة أخرى لم يُكره غلامًا يهوديا، ولم يقل له بأنك عبد وتحت إمرتي لذا يجب أن تفعل كما آمرك. إن هذا الغلام مرض واشتد مرضه، وحين رأى ﷺ أن حالته في خطرٍ فكّر في حسن عاقبته. وكان ﷺ قلقاً من أن يفارق الغلامُ الدنيا دون أن يسلم، فأراد أن يرحل من الدنيا بعد الإيمان حتى يغفر له الله ﷻ، فذهب ليعوده وطلب منه بكل حب أن يقبل الإسلام. فعن أنس ﷺ قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: أسلِمْ. فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أَطِعْ أبا القاسم ﷺ، فأسلمَ، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: "الحمد لله الذي أنقذه من النار." (البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات)

وفي روايةٍ أخرى أن الغلام نظر إلى أهله وبعد أن أجازُوه أو اقتنع بالإسلام وحده، أَسلمَ. (انظر مسند أحمد، مسند أنس بن مالك)

فكان إسلام هذا الغلام نتيجة حتمية لتعامل النبي ﷺ معه بالحب والعطف، ولحرية كان يحظى بها رغم كونه خادما له ﷺ، فتيقن أن هذا الدين صادق حتما، وأن نجاته تكمن في الإيمان به، إذ من المحال لهذا الشخص (ﷺ) المتجسد شفقةً ورحمةً أن يفكر فيما هو ضار به. كلا، بل هو صادق حتما ويدعو الآخرين دومًا إلى ما هو خير لهم، وبذلك ينصحهم.

فهذه هي الحرية التي أرسى النبي ﷺ دعائمها، ولا يمكن العثور على نظير لها في العالم على الإطلاق. كان ﷺ يحب الحرية سواء في الفكر والمعتقد والحياة، ويكره العبودية. فحين عرضت السيدة "خديجة" – رضي الله عنها – على النبي ﷺ بعد زواجها منه نقلَ ملكية ثروتها وعبيدها إليه، قال ﷺ لها: إذا وهبتِني هذه الأشياء فستكون ملكًا لي لأتصرف فيها كما أريد؟ قالت: لأجل ذلك أقدّمها لك. قال: سأقوم بتحرير العبيد. فأجابت: افعل ما تشاء، لقد وهبتك إياهم، والآن ليس لي حق فيما وهبتك. وفي الوقت نفسه دعا النبي ﷺ عبيدَ خديجة كلهم وقال لهم: أنتم أحرارٌ من اليوم، ووزّع معظم أموالها أيضا على الفقراء.

كان زيد بن حارثة من بين العبيد الذين حررهم، ويبدو أنه كان أذكى وأفطن من الآخرين. فقد أدرك هذا الشاب بعد أن نال حريته وزال عنه عار العبودية، أن من الأفضل له أن يبقى كما هو ولا يخرج عن عبودية محمد ﷺ. فقال للنبي ﷺ: لقد أعتقتَني ولكنني لا أريد هذه الحرية بل أفضّل أن أكون عبدًا لك حتى أحظى بقربك. فبقي عند النبي ﷺ وظلت علاقة الحب بينهما تتقوى مع مرور الوقت.

كان زيد ينحدر من أسرةٍ محترمة وغنيةٍ. والواقع أن قطاع الطرق كانوا اختطفوه وباعوه فظل يُباع من يد إلى أخرى حتى بلغ مكة. وكان أهله وأقاربه يبحثون عنه، فعلموا في نهاية المطاف أن ابنهم في مكة فأتوها. وحين علموا أنه في بيت الرسول ﷺ،

أتوه وطلبوا منه أن يأخذ منهم ما يشاء من المال ويعتق ابنهم زيدًا، لأن أمه في حالة يرثى لها من كثرة البكاء. فقال الرسول ﷺ: قد أعتقتُه مسبقا، ويمكنه أن يذهب معكم متى شاء، أما المال فلست بحاجة إليه. فقالوا لزيد: تعال معنا. فأجاب وقال: يكفيني أني قد لقيتُكم، ولسوف أرى أمي أيضا إذا سنحت لي الفرصة، ولكني لا أستطيع الذهاب معكم. لقد صرتُ عبدًا للرسول ﷺ ولا أتحمل فراقه لأنه أحبُّ إلي الآن من الأم والأب. وحاول أبوه وعمه كثيراً لإقناعه، ولكنه رفض الذهاب معهما. فلما رأى رسول الله ﷺ هذا الحب الشديد من زيد، قال: كان زيد حرًّا قبل هذا، ولكن من اليوم إنه ابني. فلما رأى أبوه وعمه ذلك طابت نفسهما، فانصرفا إلى بلدهما، وبقي زيد عند النبي ﷺ.

أما بعد تشرُّف النبي ﷺ بالرسالة فقد ارتفعت معاييره عن الحرية أكثر حتى صارت نورًا على نور، فبالإضافة إلى ما أملته عليه فطرته السليمة، قد أمر الشرع النازل عليه الناس أيضاً بأداء حقوق العبيد أو تحريرهم إذا فشلوا في ذلك. فقد ورد في رواية أن صحابياً كان يضرب عبدًا له، فرآه النبي ﷺ، فغضب عليه غضبًا شديدًا، فقال الصحابي: هو حرّ لوجه الله. فقال النبي ﷺ: "أَمَا لَو لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النارُ". (مسلم: كتاب الإيمان باب صحبة المماليك)

هذه هي الحرية. وهناك مثال آخر حول حرية التعبير والمعتقد التي منحها النبي ﷺ أهل الأديان الأخرى... وقد وقع هذا الحادث في المدينة حين توطدت أركان الحكومة الإسلامية فيها على يد النبي ﷺ. فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ اسْتَبَّ رَجُلان؛ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، قَالَ الْمُسْلِمُ: وَالذِي اصْطَفَى مُحَمدًا عَلَى الْعَالَمِينَ، فَقَالَ الْيَهُودِي: وَالذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْعَالَمِينَ. فَرَفَعَ الْمُسْلِمُ يَدَهُ عِنْدَ ذَلِكَ فَلَطَمَ وَجْهَ الْيَهُودِي، فَذَهَبَ الْيَهُودِي إِلَى النبِي ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ الْمُسْلِمِ. فَدَعَا النبِي ﷺ الْمُسْلِمَ فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ النبِي ﷺ: "لا تُخَيّرُونِي عَلَى مُوسَى."

(البخاري:كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهود)

هذا هو مستوى الحرية، حرية الدين والفكر التي منحها النبي ﷺ الناس في ظل حكومته التي قامت بعد هجرته ﷺ إلى المدينة. كان النبي ﷺ قد عقد معاهدة مع قبائل المدينة واليهود لإرساء دعائم الأمن والسلام، فقامت حكومته ﷺ في المدينة بسبب كثرة المسلمين فيها وغيرهم الذين انضموا إليهم. ولكن لم يكن الهدف إهمال حقوق الرعايا غير المسلمين وتجريح مشاعرهم. فترى في هذا الحادث أنه برغم أن النبي ﷺ هو أفضل الرسل وأعظمهم بحسب شهادة القرآن إلا أنه لم يشأ أن يتعكر صفو المجتمع بسبب المقارنة والمفاضلة بين الأنبياء. فبعد سماعه شكوى اليهودي لم يؤنب إلا المسلم قائلا له: لا تخوضوا في مفاضلة الأنبياء أثناء خصوماتكم. لا شك أنني أفضل الرسل قاطبةً عندكم أيها المسلمون، وهذا ما يشهد به الله تعالى، ولكني لن أسمح بتاتا بأن يتفوه أحدكم بكلام ضد نبي من الأنبياء ليجرح به مشاعر صاحبه الذي لا يؤمن بي. إن كنتم تكنون احترامًا لي فيجب أن تحترموا الأنبياء الآخرين أيضاً.

هذه هي معايير العدل وحرية الرأي التي أقامها النبي ﷺ مراعاةً للمسلمين وغيرهم. وليس هذا فحسب، بل في بعض الأحيان كان يراعي مشاعر الغير أكثر من أصحابه.

أسوة الرسول ﷺ لإقامة المثل الإنسانية والتسامح الديني

أقرأ على مسامعكم مثالا آخر يبين كيف قام النبي ﷺ بإرساء دعائم التسامح وغيره من المُثل الإنسانية، فعَنْ عَبْدِ الرحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى قَالَ: كَانَ سَهْلُ ابْنُ حُنَيْفٍ وَقَيْسُ بْنُ سَعْدٍ بِالْقَادِسِية، فَمرّ عَلَيهِمَا بِجَنَازَة، فَقَامَا، فَقِيلَ لَهُمَا: إِنهَا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ (أي من أهل الذمة)، فَقَالا: مرَّ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِجَنَازَةٍ فَقَامَ، فَقِيلَ لَهُ: إِنهُ يَهُودِي، فَقَالَ ﷺ: "أَلَيسَتْ نَفْسًا." (البخاري: كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي)

هكذا كان النبي ﷺ يحترم الإنسانية والأديان الأخرى، وهذه هي الأخلاق الطيبة والأسوة الحسنة التي تنشر التسامح الديني في المجتمع وتخلق المشاعر الإنسانية الرقيقة تجاه الآخرين؛ ثم هذه المشاعر بدورها تُنشئ أجواء الحب والوئام والسلام، على عكس

تصرفات بعض المتعصبين في هذه الأيام، إذ إنها لا تؤدّي إلا إلى خلق أجواء الكراهية والنفور.

وورد في روايةٍ أنه في أثناءِ معركة خيبر وقعت بعض نُسَخ التوراة في أيدي المسلمين، فشكا اليهود إلى النبي ﷺ طالبين منه إرجاع نُسَخ كتابهم المقدس إليهم. فأمر النبي ﷺ أصحابه أن يعيدوا إليهم كتبهم. (السيرة الحلبية باب ذكر مغازيه ﷺ غزوة خيبر)

فترى أنه برغم أن اليهود في تلك الأيام كانوا يتلقون العقاب على تصرفاتهم الخاطئة، إلا أن النبي ﷺ لم يشأ تجريح مشاعرهم الدينية.

هذا بعض ما اخترتُ من الحوادث والوقائع من سيرة النبي ﷺ الطيبة. لقد تحدثت من قبل عن المعاهدة التي تمت في المدينة بين اليهود والمسلمين، وأذكر الآن رواية تتحدث عن البنود الهامة التي وضعها النبي ﷺ في المعاهدة لخلق جو التسامح، وتبين تلك البنود مدى حرصه ﷺ على توطيد السلام والوئام في ذاك المجتمع وعلى ترسيخ كرامة الإنسانية فيه؟

كانت من بنود المعاهدة التي أبرمها النبي ﷺ مع يهود المدينة:

* أن المسلمين واليهود سيعيشون بإخلاص ومواساة، ولا يمارس أحد الظلم والعدوان ضد الآخر. (وبالرغم من أن اليهود دأبوا على نقض هذا البند إلا أن النبي ﷺ ظل يعاملهم بالإحسان حتى إذا بلغ السيل الزبى اضطر لاتخاذ إجراءات صارمة ضدهم.)

* لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، (أي أنهم سيتمتعون بالحرية في دينهم رغم كثرة المسلمين هناك).

* سوف تُحفظ وتُحترم نفوس جميع المواطنين وأموالهم، إلا من ظَلَم وأثِمَ، (أي أن كل مجرم سيعاقَب دونما تفريق، سواء كان مسلماً أو غيره. أما حفظ الأموال والأنفس فهو مسؤولية الجميع، كما هي مسؤولية الحكومة).

* أنَّ ما يحدث بين أهل هذه الصحيفة من خصومة أو شجار فسوف يُعرض على محمَّدٍ رسول الله ﷺ وسيَحْكُم في كل قضية حسب أمر الله تعالى، (والمراد من أمر الله

هنا أن يحكم بحسب شريعة كل قوم، غير أنه لا بد أن يعرض الأمر على النبي ﷺ لأنه هو صاحب السلطة العليا في الدولة، لذا فالحكم في يده. وعليه فقد تم الفصل في بعض القضايا المتعلقة باليهود وفقاً لشريعتهم. إن بعض المسيحيين وغيرهم يعترضون اليوم بأن اليهود قد ظُلِموا في تلك القرارات، مع أن تلك القرارات كلها قد صدرت بحسب طلبهم وطبق شروطهم وشرعهم).

* كذلك كان من بنود هذه المعاهدة ألا يخرج أحدٌ من المدينة للحرب دون إذن من الرسول ﷺ. وذلك لأنه لا بد من طاعة الحكومة التي يعيش الناس تحت ظلها. (هذا الشرط ينبغي أن يمثّل هداية صريحة للتنظيمات الجهادية المعاصرة حيث يبين أنه لا يجوز لهم أي نوعٍ من الجهاد بدون إذنٍ من الحكومة التي يعيشون تحت ظلها، اللهم إلا أن يكونوا ضمن جيش هذه الحكومة وهي تخوض الحرب).

* أن يتناصر المسلمون واليهود على من يَدْهَمُ يثربَ. (أي إذا شُنت الحربُ ضد أي من الفريقين في المدينة فسيتناصرون. وإنْ تمّ الصلح مع العدو وجرَّ نفعاً أو ربحاً سواء للمسلمين أم لليهود فسينال كل فريق نصيبه منه).

* أنه إذا شُن الهجوم على المدينة فعلى الفريقين التصدي له.

* أن لا تُجَارُ قريشٌ ولا مَن ناصرَها. (ذلك لأنهم هم الذين أخرجوا المسلمين من مكة حتى لجأوا إلى المدينة، لذا لا يسمح للذين يعيشون تحت ظل هذه الحكومة أن يعقدوا أي نوعٍ من المعاهدات مع العدو ولا يسمح لهم أن يقبلوا منهم أي معونة).

* أن يتحمل كل فريق نفقاته بنفسه.

* أن لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم. (أي كما ذُكِرَ سابقاً فكل مَن كان ظالماً أو جانحاً سيعاقَب على أي حال، وسيؤاخذ بسبب عمله، ولن يكون هناك أي تفريق في هذا الأمر بين مسلمٍ أو يهودي أو أي شخصٍ آخر). (تلخيصًا من كتاب "سيرة خاتم النبيين ﷺ" لمرزا بشير أحمد رضي الله عنه ص ٢٧٩)

وحفاظًا على هذه الحرية الدينية والتسامح، سمح الرسول ﷺ لنصارى نجران بالعبادة في المسجد النبوي، فصلّوا متجهين نحو الشرق. ومع أن الصحابة كانوا يرون ألا يُسمح لهم بذلك، ولكن رسول الله ﷺ قال: لا بأس في ذلك.

لقد ورد في كتاب الأمان الذي أعطاه الرسول ﷺ لأهل نجران أن المسلمين سوف يتولون حماية حدود بلادهم وصوامعهم ومعابدهم وخاناتهم حيثما كانت، سواء في المناطق النائية أو في المدن أو الجبال أو الغابات. وأن لهم حرية العبادة بحسب دينهم، ومن واجب المسلمين أن يحافظوا على حريتهم هذه. وقال ﷺ: إن حمايتهم واجبة علي لأنهم أصبحوا رعايا الدولة الإسلامية، وبالتالي فقد أصبحوا من رعيتي.

وجاء في هذا الكتاب أنه لن يُجبر النصارى على الاشتراك في حروب المسلمين، ولن يُعزَلَ قساوستهم ورجال دينهم عن مناصبهم ومراتبهم، بل يستمرون في عملهم كما كانوا من قبل. ولن يتدخل المسلمون في معابدهم وصوامعهم، فلن تُحوَّل إلى خانات أو دور إقامة، ولن تُستخدم لأي غرض آخر دون الإذن من أهلها. ولن تؤخذ الجزية أو الخراج من القسس والرهبان حيثما كانوا. وإذا تزوج مسلمٌ من مسيحيةٍ فتكون حرةً في عبادتها. ومن أراد منهم أن يستفتي علماء ملته فله الحرية في ذلك.

وقال النبي ﷺ عن ترميم الكنائس بأنه لو طلب أصحابها معونة مادية أو معنوية لهذا الغرض فينبغي على المسلمين أن يعينوهم، لأن في ذلك خيرًا. وهذه المعونة لن تكون قرضا ولا منَّة عليهم، بل إن تحسين العلاقات الاجتماعية على هذا النحو ومساعدة بعضهم بعضا سيساعد على حسن تطبيق المعاهدة. (تلخيصا من زاد المعاد في هدى خير العباد، الفصل في قدوم وفد نجران)

فهذه كانت أسوة رسول الله ﷺ من أجل توطيد حرية الدين والتسامح. فمن الظلم العظيم – رغم وجود كل هذه النماذج الرائعة – اتهامه ﷺ بممارسة الظلم ونشر الدين بحد السيف!!

يقول سيدنا المسيح الموعود عليه السلام: "لما ساءت أعمال أهل الكتاب والمشركين العرب إلى هذا الحد أنهم أخذوا يظنون رغم ارتكابهم السيئة أنهم يحسنون صنعًا، وما ارتدعوا عن اقتراف الجرائم والإخلال بأمن البلاد، عند ذلك أراد الله تعالى أن يحمي الضعفاء من ظلمهم، فوضع زمام الحكم في يد رسوله ﷺ. وبما أن بلاد العرب كانت تسودها الحرية المطلقة، وما كان أهلها خاضعين لحُكم مَلِكٍ من الملوك، لذلك فكانت كل طائفة منهم تعيش دون وازع أو رادع. وبما أنه لم تكن ثمة قوانين تجرّمهم وتعاقبهم، فكانوا مع كل يومٍ يزدادون في ارتكاب الجرائم. فرحم الله هذه البلاد... فلم يبعث فيها النبي ﷺ رسولاً فحسب، بل جعله مَلِكًا أيضا. وأنزل عليه القرآن الكريم كشريعة مكتملة تشمل جميع القوانين والأحكام التي تتعلق بالقضايا المدَنية والجنائية والاقتصادية. فكان رسول الله ﷺ حاكماً على كل الفئات بصفته ملِكًا، وكان أصحاب الأديان المختلفة يتحاكمون إليه في قضاياهم. فمن الثابت من القرآن الكريم أن يهوديًا ومسلمًا احتكما إلى النبي ﷺ، فقضى النبي ﷺ لصالح اليهودي، بعد التحقيق، وأدان المسلم. ولكن بعض المعارضين الجهلاء الذين لا يقرؤون القرآن بتدبر وإمعان يصنّفون كل أمرٍ صادر من النبي ﷺ ضمن الأعمال التي قام بها بصفته رسولا؛ كلا، بل إن مثل هذه العقوبات كانت تصدر عنه ﷺ بصفته حاكمًا أو ملِكًا. ذلك لأن الأنبياء في بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام كانوا يُبعثون منفصلين عن الملوك الذين كانوا يسوسون أمور بلادهم، ولكن في زمن الرسول ﷺ جمع الله تعالى هذين المنصبين (أي النبي والحاكم) في شخصه الكريم، فعاملَ النبي ﷺ الناسَ – دون المجرمين منهم – بحسب الآية الكريمة ﴿وَقُلْ لِلذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَوْا فَإِنَمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ ✪. ولم يقل الله هنا في هذه الآية أن من واجبك (يا محمد) أن تحاربهم، بل إنما توضح جليًا أن المحاربة لم تكن إلا

✪ (آل عمران: ٢١)

ضد المجرمين المعتادين على قتل المسلمين والمخلين بأمن البلاد بأعمال السطو والنهب. وكانت هذه الحرب مشروعة له ﷺ لكونه حاكمًا وليس بصفته رسولا. (أي كان ﷺ يقاتل هؤلاء المجرمين بصفة حاكم دولة وليس بصفته رسولاً). كما يقول الله ﷻ ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِن اللهَ لَا يُحِب الْمُعْتَدِينَ﴾" *.

(جشمه معرفت، الخزائن الروحانية المجلد: ٢٣ ص ٢٤٢- ٢٤٣)

فكيف يمكن لهذا الرسول الأطهر ﷺ الذي نزلت عليه هذه الشريعة الغراء أن يخالف ما نزل عليه من الأحكام. لقد أعلن النبي ﷺ عند فتح مكة العفو العام دون أن يشترط على أهلها الدخول في الإسلام كما لاحظنا ذلك في مثال سبق ذكره. لقد كان لذلك العفو صور عديدة بما فيها الدخول إلى أماكن مختلفة، أو الانضواء تحت لواء شخص معين، أو اللجوء إلى البيت الحرام، أو الدخول إلى بيت شخص معين، ولكنه ﷺ لم يشترط عليهم أن يدخلوا الإسلام إذا أرادوا العفو عنهم. لقد كان هذا مثالا رائعا وعظيما بحيث لا يوجد له نظير في العالم كله؛ فقد أعلن لهم النبي ﷺ صراحة: ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾.

اللهم صلّ عليه آلاف آلاف الصلوات والتسليم، حيث قدّم مثل هذه النماذج الرائعة ودعانا للعمل بها. ندعو الله تعالى أن يوفقنا للعمل بهذه الأحكام. آمين.

---

* (البقرة:١٩١)